الأسرة وإسهاماتها العلمية والاقتصادية في الحركة التعليمية

بتلمسان خلال العهد العثماني

The scientific and economic contributions of the family to the educational movement in Tlemcen during the Ottoman era

محمد بومدين ♦

جامعة أبو بكر بلقايد ـ تلمسان boumedinem999@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2022/06/27	تاريخ القبول: 2023/04/19	تاريخ النشر: 2023/06/30

الملخص باللغة العربية: اشتهرت في مدينة تلمسان خلال العهد العثماني العديد من الأُسَر العريقة التي لعبت أدوارًا رائدة في مجال تعزيز الاهتمام بالمؤسسات التعليمية ونُظمها التربوية بالمدينة المذكورة، التي عرفت جراء ذلك نوع من التبريز العلمي والفكري الرصين، بفضل الاسهامات الدؤوبة لنخبة العلم بها، وفي مقدمتهم علماء وشيوخ وطلبة تلك البيوتات التي جمعت بين ممارسة التجارة والفلاحة والخوض في ميادين العلم، تحصيلاً وتدريسًا، حيث ما فتئت في خِضِمِ ذلك اسهاماتهم المادية والعلمية تبرز وبشكل كبير في مجال الحرص على تربية النشئ وجعله في مقدمة أولويات أنشطتها اليومية، بهدف الارتقاء بالوضع الثقافي والعلمي التي أصبحت تعيشه تلمسان على ضوء ما قدمته عائلاتها من موارد مالية لفائدة المساجد والزوايا التعليمية، وما أرسته من مناهج، وأساليب، وبرامج تعليمية، مرتكزة على أسس التعليم الديني الإسلامي الذي مزج بين النقلي منه والعقلي على حد سواء. ونتيجة لذلك باتت الساحة العلمية بتلمسان تتميز بالتفوق العلمي والنبوغ الفكري الذي بدأ يظهر عليها بفضل علمائها وتجارها وأصحاب الثروة والجاه بها من التلمسانيين، الذين خصصوا للتعليم الكثير من الأحباس والأوقاف، وبمختلف الصيغ والأنواع، من الأرباح السنوية والنصف السنوية للعقارات التجارية، والأراضي الفلاحية التابعة لشركات عائلات تلمسان خلال الفترة الحديثة.

الكلمات المفتاحية: تلمسان؛ الفترة العثمانية؛ التعليم؛ الأسر العلمية والتجارية؛ الموارد المالية.

Abstract: Scientific families and commercial in Tlemcen during the Ottoman era had a major role in caring for the

---

♦ المؤلف المرسل

educational institutions in this city, which knew a prominent scientific movement by its scientists, especially students of science and professors who belong to commercial scientific houses. And those who worked on the material and scientific contribution to these institutions until they developed significantly and prospered as a result of Tlemcen thanks to the financial resources provided by these families for the benefit of mosques and educational schools... , and the educational methods and curricula they instilled, relying on religious education, and the funds they allocated to these scientific institutions from the funds of their economic companies. All this resulted in a scientific boom in the city of Tlemcen during the modern period.

Keywords: Tlemcen; Ottoman period; education; scientific and commercial families; finance resource.

مقدمة:

أجمعت أقلام المؤرخين أنه ولئن عاشت ولاية الجزائر أوضاعًا سياسية وعسكرية مضطربة إبان الفترة العثمانية أثرت على الحياة العلمية والحضارية، فقد كانت هناك البعض من مدنها وحواضرها قد عرفت نموا في عدد سكانها، واشعاعًا في مدارسها ومساجدها في المجالات الثقافية التي كان يتغدى منها المجتمع، روحيًا وعقليًا.

ومن هذه المدن نذكر قسنطينة، وبجاية، ومازونة، وعنابة، وتلمسان...، وكانت في كل مدينة من هذه المدن عائلات اشتهرت بالعلم والتأليف أو بالزهد والتصوف... ، كعائلة "**ابن باديس**" و"**القنفذ**" في قسنطينة، و"**عائلة المنجلاتي**" و"**المشدالي**" في بجاية، وعائلة "**ابن السكات**" بمدينة الجزائر، وعائلة "**المقري**" و"**العقباني**" و"**المزارقة**" في تلمسان التي نشطت الحالة العلمية والفكرية بمؤسساتها التعليمية طيلة الفترة الوسيطة والحديثة بالمدينة المذكورة.

إنَّ ما عَرفته المؤسسات التعليمية في تلمسان على عهد العثمانيين من أنشطة علمية في مساجدها وزواياها ومدارسها على اختلاف درجاتها الدينية والعلمية، ليُعتبر بحق أحد الملامح الاثنوثقافية التي تُقاس عليها نمطية التعليم في ولاية الجزائر عامة وتلمسان خاصة، من خلال ما دَأب عليه علماؤها وعلماء بيوتاتها العلمية، خاصة التي جمعت بين العلم وممارسة الفلاحة والتجارة والصناعة، في إطار شركاتها الإقتصادية التي خَصَصت من فوائدها السنوية والنصف سنوية مبالغ مالية كبيرة في سبيل خدمة العلم وطلابه ومؤسساتهم الثقافية. كل ذلك مُسايرة منها للواقع العلمي والاجتماعي الذي رسمه

العثمانيون في ولاية الجزائر، والذي كان مُؤسسًا على ضرورة جعل النظام التعليمي مُرتبط بالأسرة الجزائرية وتعاليم الدين الإسلامي فيما يخص برامجه التي أرست للتعليم الديني والشريعة الاسلامية، وبَيَّنت بوضوح موارده المالية التي اعتمدت بشكل كبير إن لم نقل مُطلقًا على أموال الأوقاف والنفقات الخيرية التي كان يتقدم بها أولياء الصبيان والتلاميذ للأساتيذ، ناهيك عن جعل التعليم مُؤطر في هياكله المؤسساتية من قبل العائلة الجزائرية لا من قبل الإدارة العثمانية. ما جعل ذلك كله أن تحصل بواسطته الأسرة التلمسانية الريادة في ميادين تسيير المراكز العلمية والتكفل بكل ما يتعلق بها من انشغالاتها اليومية.

واستنادًا إلى ما سبق ذكره، أضحت الأسرة في تلمسان تسير في فلك تلك السياسة التعليمية، وتحرص حِرصًا شديدًا على تكوين جيل المُتعَلِمين بها من التلاميذ والطلاب، لا سيما فيما يتعلق بتوفير كل ما يلزم من موارد مالية ومادية ودعم معنوي، سواء في شتى المناسبات الدينية أم في سائر الأيام العادية.

ولعله من المفيد أن نؤكد على أن أهداف هذا الطرح الموسوم بـ: «**الأسرة واسهاماتها العلمية والاقتصادية في الحركة التعليمية بتلمسان خلال العهد العثماني**»، تبحث في الاسهامات التاريخيّة والحضاريّة لبيوتات العلم وشركاتها التجارية والفلاحية في ميادين الاهتمام بالعلم والتعليم في تلمسان، وتركز من ناحية أخرى على مدى المحاولات الإيجابية لتلك العائلات في دفع عجلة التعليم في تلمسان إبان الفترة العثمانية.

ولتوضيح ذلك، ارتأينا من زاوية أخرى أن نتموقع في وضعية طلبية تسعى لتقييم الأدوار الثقافيّة للأسرة التلمسانية في مجال دعم الحركة العلمية وتأطيرها في مختلف جوانبها المادية بالدرجة الأولى، وتنظيم برامجها التعليمية ومناهجها الدينية على المستوى العلمي والتعليمي، من خلال تجنيد كل ما يلزم لهذا المسعى، وفي مقدمتها وقف ثروات مالية ضخمة لفائدة المساجد والمدارس والزوايا والكتاتيب...، جعلنا كل ذلك نجزم القول بصرف النظر عن سوء التنظيم الذي عرفته مؤسسات الأوقاف من قبل الإدارة العثمانية. أقول؛ شكلت الأساس المادي لتلك المؤسسات التعليمية ومنبع مباشر لمواردها المالية .

لكن تبقى التساؤلات مطروحة، إذ وعِلاوة على القراءة الأولية للأهمية الإقتصادية والعلمية التي يمكن أن تجنيها الحياة الثقافية من الأوقاف، يقتضي منا الأمر تقديم تفسيرات أخرى لجملة من الأسئلة التي وجهنا بحثنا هذا على اثرها معرفيًا ومنهجيًا إلى إشكالات تتمحول أساسا حول أوضاع التعليم في تلمسان خلال العهد العثماني، ومدى استفادة شرائح المجتمع بما فيهم المرأة من الحد الأدنى منه، وإلى أي درجة اجتهد أفراد هذه البيوتات، نساءً ورجالاً، في الارتقاء بالنشاط التعليمي بتلمسان، وما الّذي ميّز

أدوارهم الاجتماعية والثقافية في مجال المحافظة على الاشعاع الثقافي لهذه المدينة، وصولا إلى آثارهم المادية ـ الموارد المالية ـ وغير المادية ـ مناهج وأساليب وطرائق في التدريس ـ المتعلقة بسير المنشآت الدينية والتعليمية بمدينتهم.

ولنا أن نتساءل أيضًا عن نظرة الباحثين الجزائريين للحركة الثقافية في الجزائر عمومًا وتلمسان خاصة، بغرض إماطة الأستار عن المقاربات التاريخية التي حكمت على هذا العهد بعهد الانحطاط الثقافي، عبر اتباع المنهج السردي التاريخي، الذي يسمح لنا بتقصي الحوادث التاريخية في إطارها الزمني والمكاني، ونمطيته القائمة على الكرونولوجيا الزمنية التي تعبر عن الوقائع التاريخية انطلاقا من الفرضيات القائمة على الملاحظة والتمحيص في الآثار المادية اللوحات الوقفية... والمكتوبة كتب ووثائق... التي خلفها سكان مدينة تلمسان أو علمائها في العهد المدروس، أم المؤرخين الأجانب على حد سواء.

1- مقاربات إشكالية حول حركة التعليم في ولاية الجزائر على عهد العثمانيين:

إذا كانت ركائز الحكم في الحضارة الإسلامية عبر التاريخ، قد حكمته ضوابط وقيود دينية وعلمية، حتى لا يكون متروكًا لأهواء الحكام ومصالحهم، فإن الضرورة التاريخية ومتطلبات الحكم ومستلزماته، إلى جانب التأثيرات الخارجية أدت كلها إلى الاعتماد على دعائم وأسس أخرى، لتثبيت السياسة العامة لحكم الدولة، ولم يكن العثمانيون بمنأى عن هذه القاعدة في حكم ولاياتهم مع مراعاة ظروف كل بلد حسب طبيعة السكان والأرض. وإن المتفهم لنظام الحكم العثماني عبر جميع الولايات الاسلامية، سيسلك بطبيعة الحال مسلك ما أجمع عليه عامة الباحثين والملاحظين في مجال التاريخ، في أن السياسة التعليمية للعثمانيين بالجزائر كانت مؤسسة على ما اعتادت عليه نظم الدولة الإسلامية وتنظيماتها عبر العصور[1].

1 سعد الله أبو القاسم، **تاريخ الجزائر الثقافي 1500 ـ 1930**، ج1، دار البصائر، الجزائر، 2009، ص: 191 ـ 192.

غير أن هذا الحكم الذي أجمع عليه أغلب المؤرخين المحليين والأجانب، فيه نوع من الإجحاف في حق الإدارة العثمانية، حيث أثبتت بعض الوثائق والمصادر التاريخية أنها اهتمت نوعًا ما بشؤون التعليم، ولو بشكل استثنائي مع بعض البايات مثل: محمد الكبير في الغرب وصالح باي في الشرق[1]. وهو ما فصل فيه "**عبد الحميد آيت حبوش**" عندما لاحظ أن التعليم في الجزائر وهو يقصد به على ما يبدو التعليم غير الرسمي، كان منتشرًا انتشارًا واسعًا حتى غطى كل المناطق بما في ذلك القرى والمداشر، رغم أن السلطة العثمانية ركزت فقط على المحافظة على الاستقرار السياسي والدفاع عن الحدود وجمع الضرائب[2].

والثابت أن التعليم حينئذ كان حرًا، يشترك فيه الرسمي وغير الرسمي، فالأمة بأسرها مسؤولة على تعليم أطفالها، وهذا لا يعني اختفاء الحكام من الساحة التعليمية بشكل كامل، حيث لا مناص لنا من القول بناء على المصادر التاريخية أنه قد اشترك بعض العثمانيون، أتراكًا وكراغلة، في إقامة مؤسسات التعليم بإمكانياتهم عندئذ، فبدأوا بالكتاتيب حول المساجد في الأحياء الآهلة بالسكان، وانتهوا بالمدارس والمساجد، وقد حبسوا لذلك الأحباس، ووفروا الكتب، وعينوا عليها المدرسين، ورتبوا لهم الرواتب[3].

هذا على المستوى الرسمي، أما على المستوى العام، فلا يفوتنا أن ننوه على أنه ولئن كان أغلبية السكان يعيشون ظاهرة التخلف التي طبعت العهد العثماني، بل العالم الإسلامي كله على حسب قول "**سعد الله أبو القاسم**"، بيد استمر الأهالي أيضًا في إقامة الشعائر الدينية وفي الحفاظ على العقيدة الإسلامية بالدفاع عنها عسكريا "**الجهاد**"، وفي بناء الأضرحة والمساجد والزوايا، وفي تحبيس الأحباس التي تخدم هذه الأغراض[4].

وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على استمرار السكان في تعليم أطفالهم علوم القرآن الكريم، حفظًا، وتفسيرًا، وقراءةً، تقربًا إلى الله عز وجل، وترسيخًا لتعاليم الدين الإسلامي، رغم الأوضاع غير المشجعة لأي بادرة علمية آنذاك[5].

---

1 عبد الحميد آيت حبوش، «**واقع التعليم في الجزائر أواخر العهد العثماني**»، دورية كان التاريخية، دورية دولية عربية علمية إلكترونية محكمة ربع سنوية متخصصة في البحوث والدراسات التاريخية، السنة الثالثة عشر ـ العدد 37، سبتمبر 2018م، ص ص: 26 ـ 31.

2 نفسه، ص: 26.

3 سعد الله أبو القاسم، **مرجع سابق**، ج1، ص: 192.

4 نفسه، ص: 193.

5 نفسه، ص: 193.

واستخلاصًا لما سبق، كان التعليم في ولاية الجزائر إلى جانب ذلك، خاصًا، يقوم على جهود الأفراد والمؤسسات الخيرية، وكانت الأسرة الجزائرية هي التي تتحمل أعباء التعليم، فالآباء ولو كانوا فقراء، فإنهم كانوا حريصين على إرسال أبنائهم للكتاتيب[1].

كل ذلك قد ساهم بطريقة مباشرة أم غير مباشرة في ركود ثقافي نسبي، لفت انتباه من عايشه وشارك فيه من العلماء الرحالة آنذاك.

1- 1. شهادات الرحالة والعلماء حول حركة التعليم بتلمسان زمن العثمانيين:

لا يختلجنا الريب، إذا ما احتكمنا لشكوى بعض العلماء من تلمسان أننا سنجد صورة التعليم عندئذ لا تسر، فبالاضافة إلى كون العثمانيين لم يضعوا سياسة لتشجيع التعليم، فإنهم على ما يظهر كانوا يستولون على الأموال والأوقاف المخصصة لرجال العلم وطلابه، ممَّا انعكس سلبًا على حركة التعليم بالمدينة المذكورة، وذلك ما أشار له الرحالة المغربي "**المكناسي**" في رحلته "**إحراز المعلى والرقيب ...**"، بقوله عن ظلم الحكام العثمانيين واستلائهم على أموال الناس: «**... مدينة كبيرة مشهورة، ...، إلا أن الخراب استولى على كثير من أطرافها ...، وزادها عمال الجور والظلم، ...، ...، ومن قلة حياء حاكم البلد وكثرة حرصه وإذاية العامة، أن كل من يمر به حجاج بيت الله يقبض منهم شيئا معينا على أمتعتهم وحوائجهم ...**»[2].

ومن خلال ما عبر عنه أيضًا المؤرخ أبو راس الناصري **ت: 1238هـ/ 1823م**، لما انتقل إلى تلمسان لطلب العلم في رِحلته العلمية المعنونة بـ "**فتح الإله وَمنته في التحدثِ بفضل ربي ونعمته**"، سندرك من عباراته الآتية الكثير من مظاهر الإهمال والتقهقر العلمي أواخر العهد العثماني بتلمسان وعامة الولاية الجزائرية، بقوله وهو يقصد تلمسان: «**... أما الآن فهي كأمس الدابر والميت القابر ... فأصبحت خامدة الحس ...، يا تلمسان اصبري على كمد الزمان وكده، ... عسى الله أن يأتي بالفتح وأمر من عنده**»[3].

لذلك لا نستغرب أن يكتب الأوربيون في القرن الثاني عشر الهجري/الثامن عشر ميلادي، نقدًا لاذعًا للحالة العقلية التي كان عليها المجتمع الجزائري، ونحو ذلك من

---

1 نفسه، ج1، ص: 314.

2 المكناسي ت: 1199هـ/ 1799م، **إحراز المعلى والرقيب في حج بيت الله الحرام وزيارة القدس الشريف والخليل والتبرك بقبره الحبيب**، تقديم وتحقيق: بوكبوط محمد، دار السويد للنشر والتوزيع، الإمارات العربية المتحدة، 2003م، ص: 331.

3 الناصري ت: 1238هـ/ 1823م، **فتح الإله وَمنته في التحدثِ بفضل ربي ونعمته**، تحقيق: الجزائري محمد بن عبد الكريم، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986م، ص: 108.

الاتهامات التي تُجرّد العثمانيين جملة وتفصيلاً من الحضارة والثقافة، فشارل فيرو "**Charles Feraud**" يرى بأن العهد التركي في الجزائر كان عبارة عن "**بربرية ثقافية**"، وأن الشعب قد قلَّد حكامه الأتراك في جهلهم وبعدهم عن العلم والعلماء[1].

وإذا أمعنا النظر في عوامل وظروف تراجع النشاط التعليمي بتلمسان إبان هذه الفترة، سنجد أنه لم يكن الواقع الثقافي بولاية الجزائر بأحسن حال من أوضاعها الأخرى، بالرغم من أن التعليم كان منتشرًا، ومراكزه الثقافية كثيرة[2].

غير أننا وعلى العكس من ذلك، فقد وجدنا أن الكثير من الرحالة الأوربيين الذين وصفوا ولاية الجزائر في رِحلاتهم إبان هذه الفترة، وكذا السياسيين الذين رصدوا أوضاعها العامة في مذكراتهم، قد أبرزوا الجزائريين على عكس البقية من بني جلدتهم في ثوب المثقفين[3]، من خلال انتشار المؤسسات التعليمية، إلا أن الإدارة العثمانية يمكن القول أنها اكتفت بوضع التعليم تحت رقابتها فقط، ولم تتدخل في تسييره والإنشغال بسيرورته ورسم منظومته.

هذا، ولما كان الأصل في التعليم خلال هذا العهد غير مربح، فقد أدى ذلك بعدد كبير من علماء تلمسان وشيوخها إلى اتخاذ التجارة والفلاحة حرفة بدلاً منه، لذلك نجد الكثير من بيوتات العلم بهذه المدينة تجمع بين العلم وممارسة أنشطة اقتصادية أخرى[4].

وقد لاحظ الحسن الوزان في القرن العاشر الهجري/السادس عشر ميلادي، غلبة الفقر على طلبة تلمسان، ومعنى ذلك أن مهنة التعليم لم تكن تفي بحاجاتهم المعاشية[1].

---

1 شارل فيرو مقدمة كتاب العدواني في مجلة روكاي ،1868م، نقلا عن سعد الله، **مرجع سابق**، ج1، ص: 18.

2 إبن ميمون الجزائري كان حيا سنة: 1110هـ/ 1710م، **التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية**، تقديم وتحقيق: بن عبد الكريم محمد، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص: 60.

3 لتفاصيل أكثر حول الموضوع. ينظر: محمد بومدين، «**أوضاع تلمسان الفكرية والعلمية في أَعيُنِ الرّحالة والجغرافيّين ومُدَوَّنَاتِهم خلال العهد العثمانيّ**»، مجلة الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية، دورية دولية علمية محكمة تعني بالبحوث في الحضارة والفكر ببلاد المغرب، المجلد 13 ـ العدد 01، جانفي 2021. ص: 238 ـ 249. محمد بومدين، «**الحركة العلمية في تلمسان ما بين 1008هـ/1600م ـ 1025هـ/1617م، من خلال رِحلة البطوئي**»، مجلة الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية، دورية دولية علمية محكمة تعني بالبحوث في الحضارة والفكر ببلاد المغرب، المجلد 14 ـ العدد 02، جويلية 2022، ص ص: 47 ـ 59.

4 سعد الله أبو القاسم، **مرجع سابق**، ج1، ص: 319.

هذا بالنسبة للمدرسين والأساتيذ الذين كان إضافة لذلك وضعهم المادي غير مستقر في المرتب، وغير مضمون في كثير من الأحيان، فالوقف قد يكفي وقد لا يكفي، والهدايا قد لا تأتي في مناسبتها، لأنها كما ذكر **"سعد الله أبو القاسم"** مرتبطة بأمزجة أصحابها، وظروف العائلات، وكرم الحكام، أو للأوضاع السياسية والطبيعية التي كانت تتعرض لها الجزائر حينذاك[2].

وما دام المدرس أو الأستاذ لا يشعر بالأمن في رزقه، لأنه لم يكن يتمتع بأجر ثابت من بيت المال، فإن التعليم في الحقيقة كان هو الضحية، وقد كان من نتائج تلك الحياة الإقتصادية المتدهورة التي سيطرت عليها الإدارة التركية[3] حسب **"عبد اللطيف بن اشنهو"** في كتابة **" تكون التخلف في الجزائر..."**، أن هاجر خيرة طلبة تلمسان وشيوخها العلماء إلى حواضر البلاد الإسلامية، إما لطلب المزيد من العلم، أو لطلب العيش في ظروف أفضل[4].

ويمكننا أن نلاحظ في السياق نفسه، أن المعلمين لم يكن لهم مؤسسة معينة أو مدرسة، حيث كانت المساجد التي كان يشيدها في الغالب السكان بمثابة اللبنة الأولى للعملية التعليمية في ولاية الجزائر العثمانية، باعتبارها تشكل معاهد متوسطة وعالية، تقام فيها حلقات الدروس لشتى أنواع العلوم المختلفة، وقد كانت للمساجد أهمية بالغة في الجانب الديني والروحي، فضلاً عن اضطلاعها بالدور التعليم حيث كانت شهرة المدرس هي التي تحدد مكانته، وكان الطلاب يقصدونه ولو بَعدَ مكانه، مثلما فعل الشيخ أبي زيد عبد الرحمن بن موسى التلمساني الذي ذهب للتتلمذ على الشيخ يحيى بن عمر الزواوي في منطقة **"زواوة"**، وكان سعيد المقري **كان حيا سنة: 1014هـ/ 1606م**، في تلمسان مقصدًا للعديد من الطلبة أمثال الشيخ سعيد بن ابراهيم قدورة **ت: 1066هـ/1656م**، الذي قدم إليه من مدينة الجزائر سنة **1012هـ/1606م**، وذلك لشهرته في التدريس[5].

---

1 نفسه، ج1، ص: 319.

2 سعد الله أبو القاسم، **مرجع سابق**، ج1، ص: 319.

3 عبد اللطيف بن اشنهو، **تكون التخلف في الجزائر، محاولة لدراسة حدود التنمية الراسمالية في الجزائر بين عامي 1830 ـ 1962**، ترجمة: نخبة من الأساتذة، مراجعة: شحادة عبد السلام، تدقيق: ربيع محمد يحيى، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1979م، ص: 41 ـ 42.

4 سعد الله أبو القاسم، **مرجع سابق**، ج1، ص: 331.

5 نفسه، ج1، ص: 331.

ومما سبق، ندرك من خلال استنتاج "**سعد الله أبو القاسم**" أنه لم يكن للعثمانيين سياسة للتعليم في الجزائر، ولا خطة رسمية لتشجيعه والعناية بأهله وتطويره وتوجيهه وجهة تخدم المصالح العليا للبلاد والعباد، في حين ذهب الباحث "**عبد الحميد آيت حبوش**" إلى تفسيرات أخرى تخص مؤسسات التعليم التي كانت من ضمنها مؤسسات الأوقاف التي عُدَّت حسب رأيه وفي نظر الإدارة العثمانية، وزارة للثقافة والتعليم والدين والشؤون الاجتماعية كما هي مجتمعة اليوم، رغم أنه لم يكن هناك وزارة بهذا العنوان ولا بهذا المحتوى الشامل[1].

ومما زاد الطينة بلة، هو تسرب الخرافات إلى عقول المعلمين والمدرسين والمتعلمين، وأن ممتهن التعليم إنما كان يلجأ إليه إذا لم يجد غيره من وسائل العيش، أو إذا كان يريد إرضاء ضميره الديني أو الصوفي كما كان يفعل أهل الزوايا، ولذلك يمكن القول أن انتشار التعليم الذي تشير له بعض المصادر إنما المقصود به هو التعليم الإبتدائي وليس التعليم الثانوي أو العالي، أي المراد به هو المستوى الأدنى من التعليم، أما التعليم الذي يعني التعمق في المسائل الدينية وتذوق المعارف، فقد كان قليلاً[2].

غير أن الحقيقة التاريخية لا توافق ذلك في شيء، والواقع التعليمي بولاية الجزائر وقتئذ عمومًا، يدحض تلك الأحكام التاريخية القاسية على العلم والعلماء خلال الفترة المدروسة، فما انقطعت بالجزائر مسيرة التعليم، وما انعدمت المدارس، ولا قلت العناية بالعلوم في جميع العصور الإسلامية، ومنها القرن الثالث عشر الهجري/التاسع عشر الميلادي، فلم تزل حينذاك المساجد في المدن حافلة بالأساتيذ والتلاميذ، ولم تزل الزوايا بالقرى جامعة للمشايخ والطلبة، وكلهم يبذلون جهودهم في الإلمام بالعلوم ونشرها بين الجماهير. وهذا ما دفع الكثير من المؤرخين الأجانب أمثال "**إيمريت مارسي**" إلى الجزم بأن حتى التعليم العالي، لم يكن مهملاً في عهد الجزائر العثمانية، فقد كان له نظام خاص يتكفل به مجلس بعاصمة الجزائر، مؤلف من المفتيين، المالكي والحنفي، ومن القاضيين، المالكي والحنفي، وكان ذلك المجلس يعين ناظرًا يقوم على التدريس ويقدم للداي بالجزائر، وللباي بقسنطينة وبوهران، العلماء المترشحين لكراسي التدريس، إذ

1عبد الحميد آيت حبوش، **مرجع سابق**، ص ص: 26 ـ 31.

2 سعد الله أبو القاسم، **مرجع سابق**، ج1، ص: 319.

كان ذلك الناظر بمنزلة مدير التعليم العالي، كما كان المجلس يقوم مقام المجلس الأعلى للجامعات العصرية[1].

غير أن ما ذهب إليه المؤرخ المذكور، قد جانب به الصواب على ما يبدو، فالناظر المقصود به في هذا السياق التاريخي هو من كانت توكل إليه مهمة مراقبة التصرفات الخاصة بنظار الأحباس من طرف السلطات العثمانية، من خلال ما جاء على لسان "**المهدي البوعبدلي**" وهو يؤكد أن التعليم في جميع مراحله إذ ذاك، كان شبه مستقل عن الإدارة العثمانية، إذ كانت نفقاته من ربح الأوقاف[2].

وعلى خلاف ما ذكرناه سابقًا، حول التراجع النسبي للحركة العلمية بولاية الجزائر ومدينة تلمسان على وجه التحديد إبان الفترة العثمانية، فإن صورة التعليم تلك، تتغير عندما نتأمل حالة التعليم لدى الجزائريين، وبالخصوص التلمسانيين أنفسهم. ومع كل ذلك، فقد عرفت ولاية الجزائر آنذاك، تراثًا أدبيًا وفنيًا وعلميًا، يستحق الذكر، وأن هذا المخزون الثقافي هو من إنتاج علماء وأدباء ومثقفين جزائريين، وبالتالي فهو خارج نطاق الحكم، فأصحابه لم يجدوا التبني ولا التشجيع من الحكام العثمانيين[3].

وإذا كان التعليم بصفة عامة مزدهرًا نسبيًا قبل الإحتلال الفرنسي للجزائر، فإن الميل إلى العلم والمعرفة، كان متأصلاً في نفوس الجزائريين، خاصة التلمسانيين منهم بشهادة العلماء الرحالة والمؤرخين، سواء من أبنائها، أم الذين ارتحلوا إليها لطلب العلم، فقد ذكر في هذا الصدد العالم أبو عبد الله محمد بن محمد ابن أحمد ابن مريم المديوني التلمساني **كان حيا سنة: 1025هـ/1625م**، في "**البستان**" أنه لا يمكن إحصاء عدد العلماء والفقهاء بتلمسان، بقوله: «**... وأما أولياء تلمسان وفقهائها لا يقدر أحد على إحصاء عددهم لكثرتهم، نفعنا الله بهم، ولو رمنا استيفاء ذكرهم لضاقت الدفاتر عما انتهى إلينا خبرهم رضي الله عنهم أجمعين**»[4].

---

1 EMERIT, M, **L'ETAT Intellectuel et moral en Algérie en 1830**, in Revue internationale de l'enseignement, Juillet-Septembre 1955, P: 278.

2 ناصر الدين السعيدوني، المهدي البوعبدلي، **الجزائر في التاريخ العهد العثماني**، المكتبة الجزائرية للدراسات التاريخية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص: 127.

3 سعد الله أبو القاسم، **مرجع سابق**، ج1، ص: 319.

4 ابن مريم كان حيا سنة: 1025هـ/1625م، **البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان**، تحقيق: بوباية عبد القادر، دار الكتب العلمية، بيروت، 2014، ص: 507.

كما تحدثت الكثير من المصادر المعاصرة للفترة العثمانية بتلمسان، عن إنتشار التعليم، وعن استعداد أهل تلمسان والجزائر عمومًا للتعلم ومهارتهم فيه، وهو ما ورد عند شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد المقري التلمساني **ت:1041هـ/ 1631م**، في **"نفح الطيب"**، بقوله: «**... وقد تخرج بتلمسان من العلماء والصلحاء ما لا ينضبط، ويكفيها افتخارا دَفْنُ ولي الله سيدي أبي مدين بها ...**»[1].

وهو ما أكده كذلك صاحب **"فتح الإله..."** أن بتلمسان أربعة آلاف ضريح للعلماء، كدليل قاطع لانتشار العلم والعلماء بهذه المدينة الحاضرة[2].

وأشار في كلامه أيضا أن علماء تلمسان امتازوا بالنباهة العلمية، لدرجة التفوق العلمي والتدقيق اللغوي والأدبي، فيما اعترف به عن صواب أحد علمائها الذي جالسه مجالسة علمية وأدبية، وصحح له لفظًا لغويًا، وهو يقول: «**... فرأى لفظ "نظم" بخطي بضاد، فقال: بل بظاء مشالة، فطالعت "القاموس"، فوجدت الصواب منه ...**»[3].

زيادة على ذلك، فقد أكد عالم آخر من تلمسان وفي الفترة الزمنية نفسها ـ أي القرن الحادي عشر هجري/السابع عشر ميلادي ـ على أن تلمسان كانت لا تزال تحافظ على اشعاعها الثقافي والفكري، وهو ما أشار له ابن الصائم التلمساني **كان حيا سنة: 1066هـ/1656م**، حيث قال: «**...، والعلم بها يفور ويغور ...**»[4]،

وقد وصل ببعضهم من العلماء المثقفين والمبرزين في التأليف والتصنيف إلى المشاركة في وضع عناوين الكتب التي يؤلفها علماء ولاية الجزائر في ذلك العهد، وصياغتها صياغة دقيقة، لكونهم متمرسون في هذه الصنعة من جهة، ومن ناحية أخرى كثرة مطالعتهم للكتب وحبهم للعلم وانتاجه الفكري، بمثل ما حدث مع العالم ابن سحنون **ت: بعد 1211هـ/ 1796م**، وعالم تلمسان أبي حامد محمد بن عبد الرحمن بن الشيخ المناوي اليبدري التلمساني **من علماء نهاية القرن 12هـ/ 18م، وبداية القرن 13هـ/19م**، حيث ذكر الأول أنه ألف كتاب وسمه بعنوان، وعندما وقف عليه الأخير غير

---

1 شهاب الدين المقري ت: 1041هـ/ 1631م، **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب**، ج7، تحقيق: يوسف الشيخ محمد البقاعي، دار الفكر العربي، بيروت، 1998، ص: 136.

2 أبو راس الناصري ت: 1238هـ/ 1823م، **مصدر سابق**، ص: 108.

3 نفسه، ص: 108.

4 ابن الصائم كان حيا سنة : 1066هـ/1656م، **مخطوط: كعبة الطائفين وبهجة العاكفين على قصيدة حزب العارفين**، المكتبة الوطنية بباريس، يحمل رقم: 4601، ص: 119.

له العنوان ليكون أكثر دقة، بقوله في هذا الشأن: «**... وقد سميت هذا الصوان المحتوى على لبابه، والمليح المشتمل بثيابه: الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني" ، ولما وقف عليه العلامة السيد اليبدري ابن حامد سماه: "الدُّرُّ والعسيجد في مناقب الباي محمد ...**»[1].

وذلك أن علماء تلمسان وطلبتها اشتهروا خلال هذا العهد بالتأليف في علم الأنساب والتراجم، والبحث والتقميش في كل ما له علاقة بالعلم والعلماء، لأنهم كما قال **الزياني ت: 1241هـ/ 1836**: "**كانوا نسابة البربر**"[2].

وأردف الكلام قائلاً عن كثرة الكتب النادرة في هذه المدينة أنه لما دخل هذه الأخيرة، عثر فيها على تآليف "**سليمان بن إسحاق المطماطي**"، و"**هاني بن يصدور القوصي**"، و"**كهلان بن أبي لؤي الأوربي**"، وكلها في تاريخ وأنساب البربر، وأيامهم في الجاهلية والإسلام.

وقال "**ايميريت مارسي**" في **كتابه-L'Algérie à l'époque d'Abd-el-Kader** " في معرض حديثه عن الحياة الثقافية بعاصمة الغرب الجزائري تحت عنوان "**تلمسان العاصمة الثقافية**" ما يلي: «**... إن تلمسان كانت مركزا ثقافيا، وهذه المدينة ... كانت تحتوي على خمسين مدرسة، يتعلم بها ألف تلميذ، أما التعليم الثانوي والعالي فكان يتتبعه حوالي ست مائة تلميذ في مدرستين الجامع الأعظم وجامع ابني الإمام، وفي ضواحي تلمسان كان التعليم بالزاوية الشهيرة في عين الحوت وفي الفحص كان التعليم منتشرا إذ كان يوجد فيه ثلاثون زاوية، ...**»[3].

إلا أنه يواصل الكلام عن الحالة الثقافية لتلمسان خلال هذا العهد ويؤكد تقاعس الأتراك العثمانيين عن الإهتمام بالحياة الثقافية، فيقول: «**... ومع هذا كله فحالتها الثقافية إذ ذاك كانت لا تقاس بحالتها التي بلغتها في عصرها الذهبي فالأتراك تقاعسوا**

---

1 ابن سحنون ت بعد 1211هـ/ 1796م، **الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني**، تحقيق: المهدي البوعبدلي، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2012، ص: 100.

2 الزياني ت: 1241هـ/ 1836، **الترجمانة الكبرى في أخبار المعمورة برًا وبحرًا، أو الرحلة الربانية والروضة السلمانية أو ترجمانة الدنيا وما فيها من الأمصار**، تعليق: عبد الكريم الفيلالي، مطبعة المعارف، الرباط، 1991، ص ص 142 ـ 143 .

3 نقلا عن: ناصر الدين السعيدوني، المهدي البوعبدلي، **مرجع سابق**، ص: 144.

عن الاهتمام بالحياة الثقافية، ولهذا كان شبان الطلبة الراغبين في تمتين ثقافتهم يلجأون إلى معاهد المغرب الأقصى ..."[1].

ومما لا شك فيه، أنه إذا كانت مختلف المصادر التاريخية قد أشارت بكثرة للفقهاء والعلماء من الذكور والرجال الذين نَشَّطوا الحياة العلمية بتلمسان آنذاك، وكثرتهم التي عجزت كتب التراجم على ضبطها والتطرق لكل أوليائها وشيوخها، فإن شواهد القبور الاثرية وكتب الأنساب، قد أماطت اللثام عن عنصر آخر في المجتمع التلمساني وقتئذ، قد ساهم مساهمة فعالة في ميادين التعليم والتعلم، والذي لم تعط له الدراسات الأكاديمية حقه من البحث والتقصي فيما يتعلق بسيرته العلمية ومسيرته الثقافية في الفترة المدروسة، رغم أن هذه الشريحة من المجتمع المتمثلة في المرأة قد دلت هي الأخرى بدلوها في مجال التحصيل العلمي ومشاركة الرجل في التعليم، حتى قفزت بعضهن إلى مراتب علمية متقدمة في الفقه والتصوف.

1 ـ 2. مكانة المرأة ودورها في التعليم بتلمسان إبان الفترة العثمانية:

إن الشيء الجدير بالذكر عن التعليم في ولاية الجزائر في العهد الحديث، هو تغييب النساء في ميدان التعليم، سواء من المصادر التي عاصرتهم، أم من طرف الدارسين والباحثين المحدثين، حيث انطوت وجهة نظر أحد هؤلاء المؤرخين وهو يلاحظ أن الساحة الثقافية والتعليمية آنذاك، قد كانت فارغة من المرأة الجزائرية المثقفة التي تساهم في الحياة الثقافية في المجتمع، فجزم القول على أنه لا شاعرات ولا فقيهات كانوا يُسهمن في ترقية الذوق الثقافي والعلمي والاجتماعي. فالمجتمع الجزائري في نظره من هذه الناحية كان مشلولاً[2].

غير أننا وبعد التقميش في مختلف المصادر المادية والمكتوبة، قد وقفنا على شواهد قبور لفتيات ونساء تلمسانيات، ينتمين لمختلف الأسر العلمية والتجارية بتلمسان كـ: "**بيت العبادي**" و"**بيت البريكسي**" و"**بيت الشاطبي**" و"**بيت ابن مرزوق**" و"**بيت آغا بن ساري**"...، حيث قُيِّدَ كتابةً في شاهد قبورهن المحفوظة بمتحف تلمسان تعليقات وألقابًا علمية، مثل "**السيدة الجليلة**"...[3]، حيث نكاد نتأكد من أنهن مثقفات، أو ربما عالمات فقيهات بدرجة كبيرة، إذا ما علمنا أنهن قد دفن بالقرب من آبائهن العلماء، أو في روضة أحد الأولياء الصلحاء كضريح "**ابن مرزوق**"، أو في أحد المدارس والزوايا...، أو

1 نفسه، ص: 144.

2 سعد الله أبو القاسم، **مرجع سابق**، ج1، ص: 336.

3 زيارة ميدانية إلى متحف تلمسان، يوم: 19/ 04/ 2019، في الساعة: 11:12.

استنادًا للعادات والتقاليد الدينية والعلمية التي كانت سائدة عند بيوتات العلم في تلمسان خلال العهد المدروس، في اجتماع البنات وبنات الأبناء والحفيدات في ساحة المنزل حول الجد الأكبر لتلاوة القرآن وحفظه.

وهو ما لاحظناه مع بيت "**ابن مريم التلمساني**" الذي ذكر صاحب "**البستان**" أن والده أبو عبد الله محمد الشريف المليتي التلمساني **985هـ/1577م**، كان حريصًا على زرع حب العلم وتحصيله للنساء، حيث كان لا يختم القرآن الكريم حتى يجمع أولاده وبناته وأولادهن وأزواجهن...، ويقرأ الفاتحة على الدوام[1].

هذا إلى جانب وجود الكثير من العالمات والفقيهات التلمسانيات اللائي ذكرتهن كتب الأنساب والسير، وفي مقدمتها صاحب "**كعبة الطائفين**" الذي ذكر الولية الصالحة فاطمة بنت أبريخوا الوعزانية التلمسانية **كانت حية سنة: 1060هـ/1652م**، حيث قال عنها: «**... ثم بعد خروجي زرت صلحاء البوادي فالتقيت مع الولية المؤمنة الصادقة المتصدقة فاطمة بنت أبريخوا الوعزانية، وكانت محبة في أهل المحبة تبيت باكية ذاكرة** ...»[2].

كما أشار النسابة الطيب بن المختار الغريسي المختاري **ت: 1320هـ/1910م**، صاحب كتاب "**القول الأعم في بيان أنساب قبائل الحشم**"، إلى أحد فقيهات بيت "**سيدي العبدلي التلمساني**"، السيدة عائشة **أحد بنات سيدي العبدلي عاشت في نهاية القرن الحادي عشر الهجري/السابع عشر ميلادي وبدايات القرن الثاني عشر الهجري/الثامن عشر ميلادي**، حيث قال عنها: «**... وزوجه إمرأة من أولاد سيدي محمد الصوفي المعروف بسيدي العبدلي يقال لها السيدة عائشة ... وكانت مشهورة بالفضل والصلاح** ...»[3].

ويضيف صاحب الكتاب السابق الذكر إمرأة مثقفة أخرى من بيت "**أولاد سيدهم التلمساني**" الذي كانت لها معرفة كاملة بالله عز وجل، وبذلك هي من الفقيهات والصالحات، حيث قال عنها: «**... وزوجه امرأة من أولاد سيدهم يقال لها السيدة رقية وكانت كاملة المعرفة بالله مقصودة للزيارة تأتيها الناس من كل مكان للتبرك...**»[4].

---

1 ابن مريم كان حيا سنة: 1025هـ/1625م، **مصدر سابق**، ص: 456.

2 ابن الصائم كان حيا سنة: 1066هـ/1656م، **المخطوط السابق**، ص: 179.

3 الطيب بن المختار ت: 1320هـ/1910م، **القول الأعم في بيان أنساب قبائل الحشم**، ط1، المطبعة الخلدونية، تلمسان، ص ص: 288 ـ 290.

4 نفسه، ص ص: 288 ـ 290.

وعلى ضوء العدد الكبير لفقيهات تلمسان، فقد أعاد **"سعد الله أبو القاسم"** على ما يبدو النظر فيما قاله حول خُلو الساحة التعليمية في ولاية الجزائر العثمانية، من النساء والمرأة، في زاوية أخرى من موسوعته **"تاريخ الجزائر الثقافي"**، حيث أردف الكلام على ما جزم به سابقًا، مستنتجًا أنه من غير المنطقي أن مجتمعًا فيه أهل الأندلس، وفيه مثقفون، وعلماء وصلحاء، يبخلون بتعليم بناتهم، ولو تعليمًا متواضعًا يفقههن في الدين، ويكمل الحديث قائلاً أن بعض الآباء قد علموا بناتهم القراءة والكتابة وقواعد الدين ومبادئ اللغة[1].

وهو ما أيدناه وأثبتناه من خلال المصادر التي قدمناها عن المثقفات من النساء في تلمسان على عهد العثمانيين. بمثل ما أشار له **"سعد الله أبو القاسم"** في كون **"ابن مريم"** ذكر أن العالم سليمان بن أبي سماحة قد اختصر **"صغرى السنوسي"** في التوحيد خِصيصًا للنساء والعامة[2].

كما ذكر ابن الصائم **كان حيا سنة: 1066هـ/1656م**، أن العالم الصوفي عبد الوهاب ابن حميدة التلمساني كان شيخًا لأمه[3]. غير أنه رغم وجود عدد كبير من العالمات والفقيهات بتلمسان زمن العثمانيين، فقد بقيت المنظومة التربوية في ولاية الجزائر ترتكز على الأساتيذ الذكور في تسيير حلقات الدروس وغرس الثقافة والفكر في الطلبة والتلاميذ.

2- الأستاذ المُعلم عمود المنظومة التربوية في المؤسسات التعليمية بتلمسان:

إن أساس التعليم هو **"المُعلم"** فهو ناشر العلم والمثل الأعلى للتلميذ، وكان المعلمون زمن العثمانيين، صنفين: معلمو المدن ومعلمو الأرياف[4]. والمعلمون والمدرسون هم موظفون في الغالب، خصوصًا في المدن، حيث كانوا يمارسون نشاطاتهم التعليمية في المساجد والمدارس والزوايا المخصصة للتعليم الثانوي والعالي[5].

وكانت شهرة الأستاذ، وانتمائه لأحد البيوتات العلمية، وتخصصه في فرع معين من العلوم، وفصاحة لسانه هي التي تجلب إليه الطلبة حتى تتضخم الحلقة التي يتصدرها[6].

---

1 سعد الله أبو القاسم، **مرجع سابق**، ج1، ص: 337.
2 نفسه، ج1، ص: 337.
3 ابن الصائم كان حيا سنة 1066هـ/1656م، **المخطوط السابق**، ص: 179.
4 سعد الله أبو القاسم، **مرجع سابق**، ج1، ص: 322.
5 نفسه، ج1، ص: 323.
6 نفسه، ج1، ص: 324.

ومن أمثال هؤلاء المدرسين بتلمسان وبايلك الغرب على العموم، **"الزجاي الجد"** الذي كان من العلماء البارزين خلال أواخر القرن الثاني عشر هجري/الثامن عشر ميلادي، ومن المقربين للباي محمد الكبير **ت: 1212هـ/1797م**، الذي جعله أحد العلماء الذين يُنشِّطون الجلسات العلمية من مناظرات وغيرها في مقره ببايلك الغرب، حيث قربه منه الباي المذكور قربة علمية قوية على ما يبدو، وهو ما ذكره حفيده، بقوله: «**... وأجلسه بمكان منه قريب يعني محمد الكبير، ... فلم يلبث ...، من كل وجد بالسؤال واشتد بينهم وبينه الجدال وجالوا فيه كل مجال، ...، ما دار بينهم في تلد المحاضرة وما آل اليه أمرهم من سمو المناظرة** ...»[1].

وقد اشتهر في كل قرن من الثلاث قرون للوجود العثماني بولاية الجزائر، عدد كبير من المدرسين بمدينة تلمسان، أو التلمسانيين الذين تقلدوا مهنة التدريس بمدن وحواضر الولاية بكاملها، وسجلت كتب السير والتراجم والفهارس... أخبارهم وأخبار من أخذ عنهم، ومدى سمعتهم بين أقرانهم من العلماء. ومن هؤلاء الأساتيذ والمدرسين في تلمسان الذين اختصوا فقط في التعليم. نذكر:

ـ أبو العباس أحمد بن عيسى الورنيدي أبركان ت قبل: 1020هـ/ 1610م:

نسبة إلى قبيلة **"بني ورنيد"** احدى القبائل الهلالية التي استقرت جنوب تلمسان، وهو ولي صالح، وعالم مدرس، من أصحاب العلمين، الظاهر والباطن، كما اشتهر بزهده، وورعه، ومناقبه الكثيرة، وكراماته العديدة. كان يدرس **"رسالة بن أبي زيد"**، و**"مختصر ابن الحاجب الفرعي"**، و**"عقائد السنوسي"**، و**"السلم المرونق"**، و**"حكم ابن عطاء الله في التصوف"**[2].

ـ أبو علي الحسن بن علي التلمساني كان حيا سنة: 1060هـ/1650م: محدث من كبار العلماء، تعلم بتلمسان، ثم رحل إلى المشرق، فأخذ عن علماء الحجاز ومصر، وعاد لتلمسان، فتصدر للتدريس والإقراء، أخذ عنه جماعة من علماء وهران، وندرومة، وتلمسان[3].

---

1 الزجاي الحفيد كان حيا سنة: 1284هـ/1867م، **مخطوط: إتمام الوطر في التعريف بمن اشتهر في أوائل القرن الثالث عشر**، المكتبة الوطنية بباريس، يحمل رقم: R.D9307.، الورقة 8/ب.

2 عبد المنعم الحسني القاسمي، **أعلام التصوف في الجزائر منذ البدايات إلى غاية الحرب العالمية الأولى**، دار الخليل القاسمي، الجزائر، 2005، ص: 90.

3 نفسه، ص: 114.

3- دور بيوتات تلمسان في وقف ممتلكات شركاتها الاقتصادية على المؤسسات التعليمية:

لا شك أن الحياة الثقافية ترتبط إلى حد بعيد بجميع أنشطة الحياة الأخرى، من سياسية واقتصادية واجتماعية...، بل ولا نكون مغالين في الرأي إذا قلنا أن الثقافة انعكاس حقيقي لتلك الأنشطة المختلفة، ولقد أصيبت الحياة الثقافية خلال الفترة العثمانية من تاريخ الجزائر بما أصيبت به أوجه الحياة الأخرى.

لكن وفي ظل ذلك كله، فإن ما يلفت الإنتباه عند دراسة تاريخ الجزائر الإجتماعي والثقافي خلال الفترة المشار إليها سابقا، هو ما ميز الإدارة العثمانية في الجانب الثقافي والاجتماعي، الذي لم تسجله لا المصادر التاريخية ولا الوثائق الأرشيفية، فيما يخص أي جهد ملحوظ من الجهود التي يمكن أن تؤدي بالنهوض بالحياة الثقافية بصفة عامة، مقارنة بما أظهرته تلك المصادر بخصوص ما بدله أهل البر والإحسان في المجتمع الجزائري في فترات الأزمنة المختلفة، وروح التضامن والتكافل بين أفراد المجتمع.

لذلك سنقتصر على تبيان المساهمة المجتمعية لمختلف العائلات التلمسانية فيما يتعلق بظاهرة الأوقاف التي كانت شائعة الانتشار، والمؤسسات التي كانت تسيرها.

ونظرًا للأهمية التي كانت تكتسيها الظاهرة المذكورة في المجتمع والثقافة الجزائرية خلال الفترة العثمانية، سنتناول فيما يلي ما قامت به عائلات تلمسان وأسرها في دفع عجلة التعليم انطلاقًا من ظاهرة الأوقاف الاجتماعية، وبسط الأرضية العلمية التي قامت عليها الثقافة ورِجالتها بتلمسان، والوقوف على مختلف الدوافع التي دفعت هذه الأسر إلى وقف ممتلكاتها.

3 ـ 1. تعريف الأسرة العلمية:

إن مفهوم "**الأسرة**" في اللغة ينحصر في معنى "**أسرهُ أسرًا**" أي "**قيده وأخذه أسيرًا**"، ويحمل معنى "**الأسر**" في اللغة على التماسك والقوة، وأسرة الرجل، عشيرته، لأنه يتقوى بهم[1].

وقد اتسمت الأسرة قديماً في تلمسان بالقيام بكل الوظائف المرتبطة بالحياة، وركزت على تحقيق وظائفها بالشكل الذي يلائم العصر الذي تنتمي إليه، حيث اختلفت وتطورت وظائف الأسرة التلمسانية، نتيجة تطور العصور التي أثرت في طبيعة تلك الوظائف، وكيفية ووسائل قيام الأسرة بها، ولكن لم يختلف الهدف من تلك الوظائف

1 قاموس، **المعجم الوسيط**، الطبعة الرابعة، مكتبة الشروق الدولية، مصر، 2004، ص: 17.

بالرغم من تعرضها للتطور، والذي يتمثل في تكوين الشخصية المتزنة والقادرة على التكيف مع متطلبات الحياة الاجتماعية والثقافية.

ومن بين تلك الوظائف نجد الوظيفة الدينية والأخلاقية، التي تنحصر في تقديم الآباء لأبنائهم الخبرات الكافية عن دينهم، وعن تعاليمه، وعن كل ما يؤدي بهم إلى أن يكونوا أبناء صالحين، يتحلون بالأخلاق الدينية عبر إدراجهم في المؤسسات التعليمية وضمان الحد الأدنى لهم من التعليم.

ولما كانت المساجد والمدارس والزوايا بمثابة مراكز علمية رسمية وغير رسمية، فقد كان من البديهي أن تنبعث العناية عند سكان مدينة تلمسان من علماء وغيرهم من أعيان هذه المدينة وعامة الناس، برعاية الحركة العلمية، بترتيب هذه الصدقات الجارية التي خصصتها من شركاتها الإقتصادية.

3 ـ 2. تعريف الشركات:

لقد شكلت الأسرة الوحدة الإقتصادية في ولاية الجزائر العثمانية، إنتاجًا واستهلاكًا، حيث نجد الكثير من الأراضي الفلاحية المحيطة بالمدن، كمدينة تلمسان وفحوصها، والعقارات التجارية داخل هذه المدينة، كانت حيازتها كلها للأسرة التلمسانية على اختلاف أصولها ومشاربها، وبما أن المجتمع الجزائري كان مجتمعًا فلاحيًا في العهد المذكور[1]، فإن كثرة الشركات الفلاحية ذات الطابع التجاري، كانت أهم مظهر إقتصادي تميزت به الأسرة التلمسانية مثلاً التي كانت تملك شركات فلاحية منتشرة في قرى وأرياف وأحواز مدينة تلمسان.

إن مصطلح "**الشُرْكَة**" في العامية الجزائرية في العهد العثماني يقصد به "**كوبانية** " "**campania**"ذات الأصل الروماني بلغة "**الفرانكا**" السائدة آنذاك[2]، والشراكة هي أن يملك شخصان فأكثر عقارًا واحدًا، فيرتبط تصرفهم فيه بنوع الاتفاق الذي يتم بينهم،

1 صالح عباد، **الجزائر خلال الحكم التركي 1514 ـ 1830**، دار هومة، الجزائر، 2012 ص: 335.

2 Anonyme, **Dictionnaire de la langue franque ou petit mauresque, suivi de quelques dialogues familiers et d'un vocabulaire de mots arabes les plus usuels à l'usage des Français en Afrique**, typographie de Feissat, Marseille,1830, P: 69

ويكون الاشتراك في منافع العقارات مثلما هو الحال في "**الأحباس الأهلية**" السائدة خلال العهد العثماني بولاية الجزائر[1].

3 ـ 3. دوافع الوقف الإجتماعي في تلمسان ـ بين التقرب إلى الله وتجنب التعرض للمصادرة والتغريم ـ:

إن الأملاك المحبسة الموقوفة يندرج تحتها صنف تلك الأملاك التي أوقفت على المساجد، والتي تمتاز بأنها غير خاضعة للضرائب والالتزامات المالية[2].

ويعود مصدر هذه الأملاك إلى عطايا بعض الأشخاص الأتقياء من مدينة تلمسان، الذين يشترطون في العادة فيما أوقفوه على المساجد أن تخصص عوائده على الصدقات أو تدخل في هدايا الحرمين الشريفين بمكة والمدينة، وكانت السمة البارزة فيما يخص مصادر هذه الأوقاف، أنها لم تكن من أحباس سكان قلب المدينة فقط، بل كانت منابعها تعود لقرى وأرياف هذه المدينة أيضا كقرية "**بني وعزان**"، التي وجد تقييدًا باسمها في لوحة وقفية بمسجد سيدي اليدون[3]، حيث كانت تضم في الغالب الملكيات الريفية التابعة للمؤسسات الوقفية المضمنة للمزارع الفلاحية "**الضيعات**"، وقطع الأراضي والبساتين...[4].

وقد كان هؤلاء الأشخاص في الغالب مدفوعين إلى هذا الإجراء بفعل جشع البايات وطمعهم[5]، حيث أكد قنصل أميركا في الجزائر السيد "**charle Charles** " في مذكراته، أن المنصب الخطير الشأن في الحكومة الجزائرية، هو ذلك الذي يعالج شؤون الميراث، وأضاف يقول أنه قد جرت العادة في هذا البلد أن يقوم الأشخاص الذين يريدون التهرب

---

1 مصطفى أحمد بن حموش، **فقه العمران الإسلامي من خلال الأرشيف العثماني الجزائري 1549م ـ 1830 ـ من واقع الأوامر السلطانية وعقود المحاكم الشرعية**، دار البعث للدراسات التاريخية، الإمارات، 2000، ص: 47

2 سعيدوني نصر الدين، الشرق الجزائري **بايلك قسنطينة أثناء العهد العثماني وبداية الاحتلال الفرنسي من خلال وثائق الأرشيف**، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، 2013، ص: 160

3 صبرينة نعيمة دحماني، **الآثار الإسلامية الدينية بمدينة تلمسان، إحصاء وجرد وتحليل، دراسة تمهيدية لوضع الخارطة الأثرية**، كنوز الحكمة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2020، ص: 48.

4 سعيدوني نصر الدين، **مرجع سابق**، ص: 225.

5 نفسه، ص: 160.

من سطوته، بوقف أملاكهم على الحرمين الشريفين، متى لم يكن لديهم وارث شرعي[1]. إذ يتضح من كلامه أن الأهالي كانوا يحبسون أملاكهم حتى لا تتعرض للمصادرة والتغريم.

وهو ما أشار إليه الباحث **"أرزقي شويتام"** عندما لاحظ أنه من بين الأسباب المتعددة التي دفعت بالمجتمع في الجزائر أثناء العهد العثماني إلى وقف ممتلكاته، هو الدافع الديني بالدرجة الأولى، إلى جانب سعي بعض هذه العائلات إلى المحافظة على وحدة أملاكها وعدم تعرضها للتجزئة، أو بيعها من بعد انقراضها إذا لم يكن لديها وارث يرث ثروتها[2].

ونستنبط من خلال أحد الوثائق الأرشيفية المؤرخة بتاريخ **27 جمادى الثانية 1225هـ/29 جويلية 1810م، ينظر الملحق رقم: 01**، أن استنتاج **"شويتام"** لم يجانب به الصواب، خصوصًا أن نص الرسالة الأرشيفية المشار إليها للتو والموقعة من قبل قاضي التركات بتلمسان العالم الحاج محمد بن الحاج التلمساني **كان حيا سنة: 1225هـ/1810م**، تثبت أن الإدارة العثمانية بتلمسان قد كانت تخلق حلول سريعة وغير منطقية تريد بها الحصول على أملاك الورثة من دون وجه شرعي، وفي الآتي توضيح أكثر لما بسطناه بالقول: «**رسالة من قاضي التراكمات العالم الحاج محمد بن الحاج التلمساني كان حيا سنة: 1225هـ/1810م، إلى بن مزيان التلمساني وآمنة بنت سعيد التلمسانية كانت حية سنة: 1225هـ/1810م. 27 جمادى الثانية 1225هـ/29 جويلية 1810م، الأمر بالحضور إلى المحكمة ومعهما تركة المرحوم محمد بن المختار بن مزيان التلمساني كان حيا قبل سنة: 1225هـ/1810م، للفصل فيها بينهما وبين الورثة. ويقول القاضي في رسالته بأنه في حال الامتناع عن الحضور فسيقدم إليهما مع أصحاب المخزن ولا يقع العمل إلا وفق الشريعة الإسلامية، وأعطاهما مهلة ثلاثة أيام**»[3].

وإذا كان هاجس المصادرة والتغريم يعد من الدوافع التي أدت ببعض الأشخاص إلى تحبيس أملاكهم، ولاسيما تلك المتعلقة بالبنايات والأراضي الفلاحية، فإن ذلك لا يقلل من الوازع الديني والعلمي للمجتمع التلمساني.

---

1 أرزقي شويتام، **المجتمع الجزائري وفعالياته في العهد العثماني 926 ـ 1246 هـ 1519 ـ 1830م**، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، الجزائر، 2009، ص: 445

2 نفسه ص: 446.

3 الوثيقة رقم **38**، السنة: **1225هـ/1810م**، قسم المخطوطات: لمجموعة: **2316**، المكتبة الوطنية الجزائرية، الحامة، الجزائر.

وتماشيًا مع ما تم ذكره، فقد ارتبطت عائلات تلمسان بالجانب الديني في وقف ممتلكاتها، حيث لاحظنا أثناء اطلاعنا على بعض الكتابات الوقفية بمساجد تلمسان، أن الكثير من العائلات من سكان هذه المدينة، كانت حريصة جدّ الحِرص على ضرورة حماية أوقاف أملاكها على المنشآت الدينية والدُنيوية، عندما لاحظنا عبارتين وردتا في لوحة وقفية خاصة بمسجد سيدي زكري بتلمسان، تذم ذمًا كبيرًا من يُغير منافع هذه الأوقاف، أو يستحوذ عليها، وفي شأن ذلك جاء في العبارة الأولى من اللوحة الوقفية، ما يلي: «**... ولعنة الله على من يأكل حق الحبوس وينتقم منه، في رجب عام أربعة وخمسين ومائة وألف...**»[1]. وفي الثانية من اللوحة نفسها: «**... ومن بدل وغير فالله حسيبه** ...»[2].

3 ـ 4. المردود العلمي والاقتصادي للأوقاف على المؤسسات التعليمية بتلمسان:

حري بنا قبل التطرق للفائدة المرجوة من أموال الأوقاف على المؤسسات التعليمية بتلمسان، أن نؤكد بادئ ذي بدء على أن أجور المُعلمين من الأوقاف كانت تمثل العمود الأساسي لمعاشهم، فإذا عدنا لوثائق الوقف وجدناها تنص على تخصيص مبالغ للمعلمين[3].

وفي إطار المشروع الحضاري الكبير للباي محمد الكبير الذي كان في صدد إنشائه أواخر القرن الثاني عشر الهجري/الثامن عشر ميلادي، عمل على اثره على إكرام العلماء وتشييد المدارس والمساجد، وصيانة بعضها، وجعل إضافة إلى ذلك للعلماء والشيوخ مرتبات رسمية مُخصصة لهم من أموال الوقاف والأحباس، كمرتفقات مالية تسد حاجاتهم المعاشية، بهدف تشجيع النشاط العلمي والتعليمي، وهو ما نجح فيه بشكل مؤقت، على ما نستنبطه من قول صاحب "**الثغر الجماني**" بن سحنون الراشدي **ت: بعد 1211هـ/ 1796م**: «**... ومن أعظم مآثره، وإن كانت كلها عظيمة، أنه رتب المدرّسين في الجوامع بوظائف يأخذونها من الأحباس، بعد أن كان العلماء لا ينتفعون من ناحية المخزن بشيء، ...، فاتسعت بذلك حال العلماء وانشرحت الصدور للقراءة، وشهرت النفوس، وكثر طلبة العلم، وتشوق كل أحد للتدريس، واشتد الحرص على التعليم، من بعد أن كاد يترك اشتغالا بالتجارة، لقلة جدواه**»[4].

---

1 زيارة ميدانية لمسجد سيدي زكري بتلمسان، يوم: 2020/10/12، في الساعة: 10:52.

2 نفسه.

3 سعد الله أبو القاسم، **مرجع سابق**، ج1، ص: 327.

4 ابن سحنون ت بعد: 1211هـ/ 1796م، **مصدر سابق**، ص: 141.

وكان من بين هؤلاء العلماء، "**الزجاي الجد**" الذي نصبه محمد الكبير مدرسًا على مدرسة أبي مدين شعيب الغوث بالمركب العلمي والديني "**العباد**"، وفوض له أمرها كله، فيما يخص تسيير أحباسها وأوقافها، حيث ذكر ذلك حفيده بشيء من الإسهاب، بقوله: «**... وتصدى لخدمة العلم الشريف بالتدريس والتصنيف، وكان ذلك على عهد الأمير الباي محمد الكبير، ...، أولاه بالإكرام وأخذ يبعث إليه في ...، مدرسة الشيخ أبي مدين بالعباد وولاه أمرها ...، وأفرده بدرسها وفوض إليه الأمر في مصالحها وحبسها ...**»[1].

لقد استمرت هذه العلاقة المرموقة بين "**الزجاي الجد**" وبايات بايلك الغرب الجزائري، بعد وفاة الباي محمد الكبير، وبقيت العلاقة تلك، حتى مع الباي مصطفى الذي راسله "**الزجاي الجد**" في أمر إرجاع أحباس مدرسة العباد إليها، وهو ما قام به الباي الأخير، عندما راسل قاضي مدينة تلمسان يأمره بالاهتمام بهذه المدرسة، وجعل "**الزجاي الجد**" هو من يقوم بتسيير أحباسها، فقال "**الزجاي الحفيد**" في هذا الصدد: «**... واستمر على ذلك أيام عثمان ...، وكذلك أيام مصطفى فإنه اتبع سبيلهما في ذلك ...، أمرها ...، وكتب له أي للزجاي كتاب كتبه له في أحباس المدرسة ونصها بعد الحمدلة محبنا المكرم والعالم العلامة القدوة الفهامة السيد محمد بن عبد الله العبادي حمة الله وسلام عليه ورحمته وبركاته وبعد فقد بلغنا كتابه في شأن أحباس مدرسة الشيخ أبي مدين أدركنا الله برضاه ...، فكتبنا لمحبنا قاضي تلمسان يرد لها جميع أحباسها المعلومة متلها سابقا في وقت أخي المرحوم السيد محمد باي وأصرفها أنت في مضاربها ...**»[2].

إضافة إلى أنه راسل قائد مدينة تلمسان من الأتراك العثمانيين ليقدم مبالغ مالية للزجاي الجد تصرف على مستلزمات هذه المدرسة، فقال صاحب المخطوط: «**... وقد كتبنا لباشا قايد تلمسان يصلكم عشرين حصيرة لتفرشوها في المدرسة المذكورة والله ينفع الجميع وها نحن بعثنا لك خمسين ريالا بوجه من عندنا فاستعن بها على قضاء مصالحه وندد لنا الدعاء الصالح في كل وقت والسلام عليك وعلى كافة تلامذتك من كاتبها بأمر ...، السيد الحاج مصطفى باي وفقه الله ولم يزل كذلك يعني جده...**»[3].

3-4-1. مظاهر الدعم المادي للمؤسسات الدينية والتعليمية بتلمسان:

1 الزجاي الحفيد كان حيا سنة: 1284هـ/1867م، **مخطوط سابق**، الورقة 9/أ.
2 نفسه، الورقة 10/ب.
3 نفسه، الورقة 11/أ.

لقد كانت الأسر العلمية وشركاتها الإقتصادية بتلمسان زمن العثمانيين، تقوم بحبس أنواع كثيرة من أملاكها الخاصة لفائدة هذه المؤسسات الدينية والتعليمية، جاعلين من عوائدها وغلاتها ومنافعها في السبيل التي سبلوها فيه لخدمة تلك المؤسسات، وكان في مقدمتها عقارات الأراضي والبنايات والبساتين التي كانت الأكثر حبسًا على المؤسسات التعليمية، وبمقاسات أحجامها المختلفة، الكبيرة منها والصغيرة، والتي كانت تسمى بتسميات على حسب مساحتها، كـ: **"الفدان"** و**"الفرد من الحرث"** خاصة الموجودة في مداشر وقرى تلمسان، وكانت ملكًا للعائلات صاحبة الشركات التجارية الكبرى والمتوسطة وحتى الصغيرة منها، حيث حبستها على الكثير من المساجد والزوايا والمدارس...، والتي وقفنا على عدد ليس بالقليل منها، بمثل ما حبس على زاوية سيدي بوجمعة الكواش عام **1016هـ/1608م**، إذ ورد في هذا الصدد عند **"Brosselard "** في المجلة الإفريقية لسنة **1959م ـ 1960م**، لوحة وقفية عثر عليها وقام بنشرها في المجلة المذكورة في سنتها المشار إليها، تُحيل إلى وقف أرض كبيرة ذات بساتين من الفواكه والخضر، التي كان يطلق عليها آنذاك تسمية **"الروض"**[1]، وفي الآتي تفصيل لما ورد في اللوحة الوقفية وتاريخ حبسها سنة **1010هـ/1602م**: «**بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد وأله وصحبه حبس السيد محمد، على الشيخ الولي الصالح سيد بجمعة، الله علينا من ذالك النصيب الواحد شايعا من جميع الروض المسمى برحاب الريح مع جميع ما اشتمل عليه حبسا أبديا على أن يرث الله الارض ومن عليها**

---

1 **الروض**: جاءت كلمة رياض أو رياط في العديد من أسماء الأماكن في مدينة تلمسان، وهي كلمة عربية أعطت للعديدة من الأماكن بتلمسان، أما بخصوص المعنى فالرّياض من الفعل **"روض روضة"** ومعناها الأرض ذات الخضرة أو البستان الحسن. ويعود أصل هذه التسمية حسب قول سكان تلمسان إلى أنّه في ذلك المكان كانت تتجمع القوافل منذ زمن بعيد وتستعد للذهاب إلى الجهاد، وذكر في أحد الكتب أنّ هذا الحيّ كان محطّة لرباط الخيل، فهذا المكان كان خاصّا بنقل البضائع والمسافرين، وكذا لتربية وتدريب البهائم من أجل تقديم عروض المسابقات والاستمتاع. أمّا بخصوص أصل الكلمة، فإن **"رباط أو رياض"** هي من أصل أندلسي، الذي يعني بالإسبانية **"رُوديو/ Rodéo"**، وهو رياضة بمعنى **"مسابقة رعاة البقر"**. ينظر: نجراوي فاطمة الزهراء، **الدراسة الإيتيمولوجية لأسماء الأماكن المأهولة ـ مقاربة لغوية تطورية منطقة تلمسان أنموذجا**، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه علوم، تحت اشراف: أ.د: سعيدي محمد، قسم التاريخ، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، جامعة أبي بكر بلقايد، 2017 ـ 2018، ص: 156.

وهو خير الوارثين بمن بدل وغير فبالله حسبه وكان هذا التحبيس اوائل عام سنة عشر وألف»[1].

ومن المتعارف عليه كذلك في المجال التنظيمي لظاهرة الوقف بتلمسان، هو حرص بيوتات العلم والتجارة بهذه المدينة على تحبيس عقاراتها وبناياتها الباهظة الثمن على المساجد العتيقة بتلمسان العثمانية، بمثل ما حُبس على مسجد السيدة الغربية بالقران السفلى، حيث تعود هذه الأملاك المحبوسة إلى شركات تابعة لعائلات تلمسانية، كـ: "**عائلة بن حباية**"، و"**عائلة اليبدري**"، و"**عائلة البجاوي**"، و"**عائلة بن عزوز**"، من خلال ما جاء عند "**Brosselard** " في المجلة الإفريقية لسنة **1962م**. وفي المجمل كانت تلك الأوقاف عبارة عن بنايات ومنازل وحوانيت واصطبلات ...، وغيرها من الأراضي الزراعية، التي كانت تمتلكها تلك الأسر، سواء في قلب مدينة تلمسان كـ: حي "**القيسارية**"، وحي "**المَدْرس**"، وحي "**الخرازين**"، وحي "**أولاد بودغن**"، أو خارج مدينة تلمسان قرب أحوازها المحيطة بها، أو حتى في أريافها البعيدة عنها، كـ: "**بن سكران**" و"**أعمير**"[2].

وكان من ضمن المساجد التي حظيت بعناية فائقة من قبل بيوتات تلمسان، "**مسجد سيدي عمران**" كذلك، الكائن بحي "**باب الجياد**" شرق مدينة تلمسان، حيث ذكر "**بروسلار**" لوحة وقفية تحتوي الشيء الكثير فيما يخص أحباس هذا المسجد من أراضي فلاحية وزراعية، وبنايات، وحوانيت، وغيرها من العقارات المادية، من قبل العائلات نفسها السابقة الذكر في مقام التعرض لمسجد السيدة الغربية، إضافة لعائلات أخرى من تلمسان، كـ: "**عائلة بن مامي**"، و"**عائلة بن حجي**"، و"**عائلة سيدي سعيد البوزيدي**"، وغيرها...، ممَّن أوقفت ثرواتها الموجودة بـ: "**حي الخضارين**" و"**حي الكيفان**" و"**حي فدان السبع**"...، وحوز "**عين الحجر**"[3].

والشيء نفسه يتكرر مع "**جامع سيدي السنوسي**" الذي وردت أوقافه عند أحد علماء "**بيت روستان التلمساني**"، حمو بن روستان **توفي قبل: 1272هـ/ 1864م**، في كتابه "**تحفة الاعتبار...**"، حيث ذكر مجموعة من الأملاك الوقفية التي حبست على هذا المسجد، والمتمثلة في بنايات، وحوانيت، وبعض القطع الأرضية، المسماة بـ: "**السكة**".

---

1 charles B, «**Les Inscriptions Arabes De Tlemcen, ..., Tombeau De Louali Sidi Boudjema**», In Revue Africaine, N° 4, Année: 1859, P.257

2 charles B, **op, cit**, P.P. 167–169-

3 Ibid, P. 168.

وهو ما قيده حمو بن روستان تقييدًا لم يتضمن صاحب الحبس، على ما هو آت: «**الحمد لله وحده، هذا تقييد حبس جامع سيدي محمد السنوسي ببني جملة له داران بإزاية واحدة فوقه والأخرى ملاصقة به ثم له نصفان في حانوتين ونصف طارمة بإزاء المدرس ثم باب افتح سكتان في أدوي يحيى**»[1].

4- التداعيات العلمية والفكرية من وراء اهتمام بيوتات تلمسان بالنشاط التعليمي:

إن ازدهار الحركة العلمية بتلمسان زمن العثمانيين، يعود إلى اهتمام علماء بيوتات العلم بها، وغيرهم من عامة البيوتات الاقتصادية على حد سواء بهذه المدينة التي تخرج منها الكثير من العلماء والفقهاء من مؤسساتها العلمية، التي نالت قسطًا وفيرًا من الاهتمام المادي والمعنوي والتشجيع الازم على كل المستويات من قبل تلك الأسر، حيث كانت نتائجه قد ظهرت مباشرة مع بروز علماء أفذاذ، وشيوخ أَكْفَاء، ارتحل إليهم إلى تلمسان الكثير من الرحالة العلماء على غرار "**البطوئي**" الذي حضر مجالس الشيخ أبو عبد الله محمد العشوي الندرومي التلمساني **توفي بعد سنة: 1050هـ/ 1603م**، الذي كان أستاذًا يجلس في مجلسه العلمي علماء تلمسان خلال القرن الحادي عشر هجري/السابع عشر ميلادي، على غرار العالم "**ابن الصائم**"، وهذا ما ورد عند محقق "**كعبة الطائفين...**"، "**قويدر قيداري**"، فقال: «**كما كان يحضر في مجلس أقرانه سيدي أبو عبد الله محمد العشوي الندرومي، على الرسالة، وحكم ابن عطاء الله بشرح بن عباد النفزي**»[2].

وكان "**البطوئي**" ملازمًا للسعيد المقري لمدة غير يسيرة كما لاحظ هو نفسه، وهو يقول عنه: «**... كنا نختم عنه مختصر خليل والرسالة الألفية كل شتوة مع مداومة عقائد السنوسي، يجلس للإقراء من الصباح إلى الزوال**»[3].

---

1 حمو بن روستان التلمساني توفي قبل: 1272هـ/ 1864م، **تحفة الاعتبار فيما وجد من الآثار بمدينة الجدار ـ جامع الكتابات الأثرية التلمسانية ـ**، إشراف: بروسلار شارل، تقديم وتحقيق وتعليق: عمارة علاوة وكعوان فارس، دار الهدى للطباع والنشر والتوزيع، الجزائر، 2021، ص: 82.

2 قويدر قيداري، **كعبة الطائفين وبهجة العاكفين في الكلام على قصيدة حزب العارفين ج1 لمحمد بن سليمان الصائم التلمساني الملقب بالجازولي ق 17م ـ تقديم وتحقيق**، رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في الأدب الشعبي، تحت إشراف: شايف عكاشة، قسم التاريخ وعلم الآثار، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، جامعة أبي بكر بلقايد، 2012 ـ2013، ص: 16.

3 البطوئي كان حيا أوائل القرن: 11هـ/17م، **مطلب الفوز والفلاح في آداب طريق أهل الفوز والصلاح**، دراسة وتحقيق: الفكيكي حسن، منشورات طارق بن زياد للدراسات والأبحاث، مطبعة النجاح الجديدة، الرباط، 2000، ص: 24.

وكان أيضًا مِمَّن ارتحل إلى تلمسان خلال القرن الحادي عشر الهجري/السابع عشر ميلادي، لملازمة شيوخها والدراسة على يدهم أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن الوهراني التلمساني **من علماء القرن: 11هـ/17م**، الذي درس "**الرسالة**" بالجامع الأعظم بتلمسان، وفي يوم الخميس والجمعة كان يدرس "**الخراز**" و"**الضبط**" و"**ابن بري**"[1].

وذكر أيضًا في هذا الصدد صاحب "**مرآة المحاسن**" أن أبو عبد الله محمد الأصغر بن محمد الفاسي الفهري **ت: 1042هـ/1634م**، قد وفد على تلمسان ولقي بها العالم أبا عثمان السعيد المقري، وجملة من العلماء، كالعالم أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن ابن رحمة المطغري التلمساني **ت: 1001هـ/ 1592م**، على إثر زيارته لتلمسان على ما يبدو للتجارة وطلب العلم[2].

الخاتمة:

وفي الختام، ومن خلال ما سبق عرضه حول موضوعنا المتمحور حول فعاليات المجتمع التلمساني في مجال التعليم، والقراءة الاثنوثقافية لمساهمة الأسر العلمية في ترسيخ الحركة العلمية في تلمسان أواخر العهد العثماني، تمكنا من الوقوف على مجموعة من النقاط الاستنتاجية. نسجل نتائجها بإيجاز فيما يلي:

- حتى نكون منصفين إزاء الحكم العثماني بولاية الجزائر حول مسألة التعليم بين الانحطاط والازدهار، نستطيع القول أنه لا ضير أن الحياة العلمية والثقافية للمجتمع الجزائري وقتذاك، كانت انعكاسًا حقيقيًا لما كانت تعيشه المجتمعات الإسلامية ككل خلال تلك الفترة، ولهذا برزت عدة حواضر علمية مثل تلمسان التي عرفت نشاطا فكريًا وحركة ثقافية تعليمية راقية، فكانت تلمسان ثالث مدينة علمية بعد قسنطينة والجزائر العاصمة، تحظى بمكانة ثقافية وبنشاط العلماء.

-إن الثقافة في تلمسان كانت تسير في حالة إطراد وصعود، فبعد النزاع السياسي الكبير الذي عانت منه المدينة المذكورة في القرن العاشر هجري/السادس عشر ميلادي، الذي شهد هجرة واسعة لعلماء تلمسان، أخذت الحياة العلمية تدب فيها في القرون الاحقة باستقرار الأوضاع، بمثل ما شهده القرن الثاني عشر هجري/الثامن عشر ميلادي، والثالث

1عادل نويهض، **معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر**، مؤسسة نويهض للثقافة والتأليف والترجمة والنشر، بيروت، 1980، ص: 111.

2 الفاسي ت 1052هـ/ 1652م، **مرآة المحاسن من أخبار الشيخ أبي المحاسن، ونبذة عن نشأة التصوف والطريقة الشاذلية بالمغرب**، دراسة وتحقيق: الشريف محمد حمزة بن علي الكتاني، دار ابن حزم، د.ت، ص: 208.

عشر هجري/التاسع عشر ميلادي، من حركة علمية قوية في صفوف العلماء، والعناية بالتعليم، وكثرة التآليف.

ـ نخلص في الأخير، أن الأحباس ساهمت إلى حد كبير في تحمل نفقات المدارس والمساجد...، وبما أن التعليم مرتبط بالحركة الدينية، فإن مردود المؤسسات الدينية والأوقاف كان يساعد على توظيف الأساتيذ، والعناية بالمؤسسات الخاصة بالتعليم، وفي هذا المجال يمكن أن نضرب مثالاً على الباي محمد الكبير الذي استفاد التعليم في عهده من مردود الأحباس في كل من مازونة، ومعسكر، وتلمسان، ومستغانم...

ـ ساهمت بيوتات تلمسان التجارية والعلمية في تفعيل النشاط التعليمي بتلمسان بشكل لافت للانتباه، لما خصصت جزء كبير من ممتلكات شركاتها الاقتصادية، العينية وغير العينية، المنتشرة في مختلف أحياء، وقرى، ومداشر، هذه المدينة، لفائدة المؤسسات التعليمية، من خلال وقف وحبس أراضي زراعية وحوانيت وحمامات ...، لتلك المنشآت الثقافية التي بقيت تشهد نوع من التعليم الديني المؤطر في مناهجه، وبرامجه، وموارده المالية من قبل الأسرة التلمسانية بدرجة كبيرة، مع مراقبة إدارية وسياسية، أساسها تعاليم الدين الإسلامي التي سار عليها الإدارة في ولاية الجزائر العثمانية.

ـ يعود الفضل في تبوأ تلمسان هذه المكانة العلمية، إلى حركة التعليم الشعبية التي قامت على أكتاف الأسر المحلية الكثيرة التي تولت مهمة بناء المؤسسات التعليمية وتدريس العلوم التقليدية بها، إذ تبين لنا عدد المؤسسات الثقافية بتلمسان كان أكثر منه في زمن قوتها العلمية على عهد الزيانيين.

ـ كانت من نتائج التكافل الاجتماعي بتلمسان على عهد العثمانيين أن تخرجت نخبة تلمسانية من مختلف المؤسسات التعليمية بهذه المدينة، من علماء وعالمات، اشتهروا بحذقهم في العلوم العقلية والنقلية، ودُوِّنت سِيرتهم ومَسيرتهم العلمية بنوع من الرفعة الدينية، لما شهدت لهم كتب التراجم وغيرها، بالتفوق العلمي، ومقام عُلو شانهم في تلمسان وخارجها بالحواضر العلمية في البلاد الإسلامية إبان الفترة الحديثة من تاريخها الطويل.

الملاحق:

الملحق رقم: 01: وثائق أرشيفية مؤرخة بتاريخ **27** جمادى الثانية **1225هـ/29** جويلية **1810م**، في شكل رسالة من قاضي الترائك العالم الحاج محمد بن الحاج التلمساني، إلى بن مزيان التلمساني وآمنة بنت سعيد التلمسانية، يأمرهما بالحضور إلى المحكمة ومعهما تركة المرحوم محمد بن المختار بن مزيان التلمساني، للفصل فيها بينهما وبين الورثة.

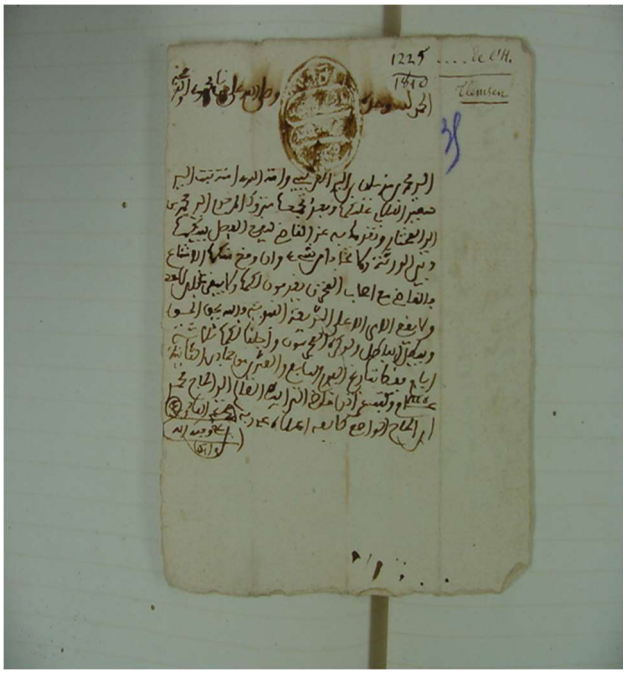

المصدر: الوثيقة رقم 38، السنة: 1225هـ/1810م، قسم المخطوطات: لمجموعة: 2316، المكتبة الوطنية الجزائرية، الحامة، الجزائر.

المصادر والمراجع:

- ✓ **الوثائق الأرشيفية:**

ـ الوثيقة رقم 38، السنة: 1225هـ/1810م، قسم المخطوطات: لمجموعة: 2316، المكتبة الوطنية الجزائرية، الحامة، الجزائر.

- ✓ **الكتب المخطوطة والمطبوعة العربية والمُعربة:**

ـ أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي 1500 ـ 1930**، ج1، دار البصائر، الجزائر، 2009.

- البطوئي عيسى بن محمد اليحيوي الراسي كان حيا أوائل القرن: 11هـ/17م، **مطلب الفوز والفلاح في آداب طريق أهل الفوز والصلاح**، دراسة وتحقيق: الفكيكي حسن، منشورات طارق بن زياد للدراسات والأبحاث، مطبعة النجاح الجديدة، الرباط، 2000.
- التلمساني شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد المقري ت: 1041هـ/ 1631م، **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب**، ج7، تحقيق: يوسف الشيخ محمد البقاعي، دار الفكر العربي، بيروت، 1998.
- التلمساني أبو عبد الله محمد بن سليمان بن عبد الرحمن بن رزوق بن محمد بن عبد الرحمن بن موسى الأنصاري ابن الصائم الجازولي كان حيا سنة: 1066هـ/1656م، **مخطوط: كعبة الطائفين وبهجة العاكفين على قصيدة حزب العارفين**، المكتبة الوطنية بباريس، يحمل رقم: 4601.
- التلمساني أبو عبد الله محمد بن محمد ابن أحمد ابن مريم المديوني كان حيا سنة: 1025هـ/1625م، **البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان**، تحقيق: بوباية عبد القادر، دار الكتب العلمية، بيروت، 2014.
- التلمساني أبو عبد الله محمد بن علي بن محمد بن عبد الله بن موسى بن محمد فتحا الزجاي الحفيد كان حيا سنة: 1284هـ/1867م، **مخطوط: إتمام الوطر في التعريف بمن اشتهر في أوائل القرن الثالث عشر**، المكتبة الوطنية بباريس، يحمل رقم: R.D.9307، 51 ورقة.
- التلمساني حمو بن روستان توفي قبل: 1272هـ/ 1864م، **تحفة الاعتبار فيما وجد من الآثار بمدينة الجدار - جامع الكتابات الأثرية التلمسانية -**، إشراف: بروسلار شارل، تقديم وتحقيق وتعليق: عمارة علاوة وكعوان فارس، دار الهدى للطباع والنشر والتوزيع، الجزائر، 2021.
- بن حموش مصطفى أحمد، **فقه العمران الإسلامي من خلال الأرشيف العثماني الجزائري 1549م - 1830 - من واقع الأوامر السلطانية وعقود المحاكم الشرعية**، دار البعث للدراسات التاريخية، الإمارات، 2000.
- دحماني صبرينة نعيمة، **الآثار الإسلامية الدينية بمدينة تلمسان، إحصاء وجرد وتحليل، دراسة تمهيدية لوضع الخارطة الأثرية**، كنوز الحكمة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2020.
- الراشدي أبو العباس أحمد بن محمد بن علي بن سحنون ت بعد: 1211هـ/ 1796م، **الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني**، تحقيق: المهدي البوعبدلي، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2012.
- الزياني أبو القاسم بن أحمد بن علي بن إبراهيم ت: 1241هـ/ 1836، **الترجمانة الكبرى في أخبار المعمورة برًا وبحرًا، أو الرحلة الربانية والروضة السلمانية أو ترجمانة الدنيا وما فيها من الأمصار**، تعليق: عبد الكريم الفيلالي، مطبعة المعارف، الرباط، 1991.
- سعيدوني نصر الدين، **الشرق الجزائري بايلك قسنطينة أثناء العهد العثماني وبداية الاحتلال الفرنسي من خلال وثائق الأرشيف**، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، 2013.
- شويتام أرزقي، **المجتمع الجزائري وفعالياته في العهد العثماني 926 - 1246 هـ 1519 - 1830م**، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، الجزائر، 2009.
- الفاسي أبو حامد محمد العربي بن يوسف الفهري ت: 1052هـ/ 1652م، **مرآة المحاسن من أخبار الشيخ أبي المحاسن، ونبذة عن نشأة التصوف والطريقة الشاذلية بالمغرب**، دراسة وتحقيق: الشريف محمد حمزة بن علي الكتاني، دار ابن حزم، د.ت.

ـ قاموس، **المعجم الوسيط**، الطبعة الرابعة، مكتبة الشروق الدولية، مصر، 2004.
ـ القاسمي عبد المنعم الحسني، **أعلام التصوف في الجزائر منذ البدايات إلى غاية الحرب العالمية الأولى**، دار الخليل القاسمي، الجزائر، 2005.
ـ المختاري الطيب بن المختار الغريسي ت: 1320هـ/1910م، **القول الأعم في بيان أنساب قبائل الحشم**، ط1، المطبعة الخلدونية، تلمسان، د.ت.
ـ المسطاطي أبو عبد الله محمد بن عبد الوهاب بن عثمان المكناسي ت: 1199هـ/ 1799م، **إحراز المعلى والرقيب في حج بيت الله الحرام وزيارة القدس الشريف والخليل والتبرك بقبره الحبيب**، تقديم وتحقيق: بوكبوط محمد، دار السويد للنشر والتوزيع، الإمارات العربية المتحدة، 2003.
ـ نويهض عادل، **معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر**، مؤسسة نويهض للثقافة والتأليف والترجمة والنشر، بيروت، 1980.
ـ نجراوي فاطمة الزهراء، **الدراسة الإيتيمولوجية لأسماء الأماكن المأهولة ـ مقاربة لغوية تطورية منطقة تلمسان أنموذجا**، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه علوم، تحت اشراف: أ.د: سعيدي محمد، قسم التاريخ، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، جامعة أبي بكر بلقايد، 2017 ـ 2018.
ـ الناصري أبو راس محمد بن أحمد ت 1238هـ/ 1823م، **فتح الإله وَمنته في التحدثِ بفضل ربي ونعمته**، تحقيق: الجزائري محمد بن عبد الكريم، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986.

✓ **الأجنبية**:

– Anonyme, **Dictionnaire de la langue franque ou petit mauresque, suivi de quelques dialogues familiers et d'un vocabulaire de mots arabes les plus usuels à l'usage des Français en Afrique**, typographie de Feissat, Marseille,1830.
– Brosselard ch ,

- **«Les Inscriptions Arabes De Tlemcen, ..., Tombeau De Louali Sidi Boudjema»,** In Revue Africaine, N° 4, Année: 1859 — 1860،P. 253 – 257.
- **«Les Inscriptions Arabes De Tlemcen, Mosquée Der Rouya, Mosquée Del Korran, Zaouya De Mouley Taieb»,** In Revue Africaine, N° 6, Année: 1862, P. 253 – 257.

– Marcel. E, **L'ETAT Intellectuel et moral en Algérie en 1830**, in Revue internationale de l'enseignement, Juillet-Septembre 1955. P. 269 – 287.